# الفصل التاسع

## ٤٧ - الدولة الفاطمية نشؤها ودخولها مصر وبناء القاهرة

اعتقد أبناء فاطمة الزهراء بأنهم أحق بالخلافة من سواهم وبدأوا يعملون سرًا لاسترجاعها. فتسرع بعضهم وجهر بدعوته قبل أن يكون له جيش يعززه فلاقوا القتل والصلب جزاء فعلتهم.

أما الفاطميون فقد أدركوا هذا السر واختاروا إقليمًا قاصيًا عن العمران بعيدًا عن مركز الخلافة لينطوى ذكرهم ويخفى خبرهم فأرسلوا داعيتهم أبو عبد الله الشيعى سنة ٢٨٠ هـ وسنة ٨٩٣ م إلى شمالى إفريقية يدعو إلى المهدى(*) ولم يعلن اسمه فلما انتصف أبو عبد الله وأطاعتهُ القبائل ناوأ الحكومة واستولى عَلَى إفريقية ثم استقدم المهدى فسار عن طريق مصر وحل بمدينة رُقَّاده وأمر أن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ولقب بأمير المؤمنين وقد أخذته الوحشة من أبى عبد الله الشيعى فقتله وأخاه أبا العباس بعد أن دانت له جميع بلاد المغرب. ثم تاقت نفسه لفتح مصر وقد حاول خلفاؤه من بعده ذلك فحالت دونهم حوائل إلى أن ولى الخلافة المعز لدين الله(*) سنة ٣٤١ هـ وسنة ٩٥٢ م فوجه همه وقوته إلى فتح مصر وسير إليها أكبر قواده جوهر. فدخلها ظافرًا فى سنة ٣٥٨ هـ وقضى على الدولة الإخشيدية ثم ملك البلاد وبنى مدينة القاهرة والجامع الأزهر العظيم وسير جعفر ابن فلاح الكتامى إلى الشام فى جمع كبير فبلغ الرملة وحارب الحسن بن عبيد الله بن طغج فظفر به وأسره مع قواده وبعث بهم إلى جوهر فى مصر ودخل البلد

---

(*) هو عبد الله بن محمد وقد اختلف النسابون والمؤرخون فى نسبة فمنهم من يقول أنهُ فاطمى وهو الصحيح ومنهم من ينكر ذلك.

(*) كان خطيبًا عالمًا باللغة اليونانية واللغات الإفريقية شجاعًا قديرًا فى السياسة حريصًا على النفوس.

عنوة وقتل من أهلها كثيرا. وجبى الخراج وسار إلى طبرية فوجد ابن ملهم قد أقام الدعوة الفاطمية فسار عنها إلى دمشق وبعد حروب عديدة استولى عليها.

تكون فى المملكة العربية حكومات كثيرة ولكن لم يجرؤ أحد عَلَى ادعاء إمارة المؤمنين واكتفوا بالسلطة الزمنية فقط فلما ظهرت الدولة الفاطمية القرشية أحدقت بالدولة العباسية الأخطار لأنها نازعتهم الخلافة والسلطة معًا ولقبوا بأمراء المؤمنين ودعوا لأنفسهم عَلَى المنابر. أما الدول الطولونية والأخشيدية والأموية «الأندلسية» والطاهرية وغيرها فكان استقلالهم ينحصر فى السلطة السياسية وظلوا يعترفون بالخلافة إلى الخلفاء العباسيين فصار للمسلمين آنذاك خليفتان عظيمان الأول عباسى عَلَى ضفاف نهر دجلة والآخر فاطمى فى حوض النيل وشرعا يتنازعان السيادة وكل بلاد كان يفتحها أحدهما تتقلص عنها دعوة الآخر. وأمَّا بنو أمية فى الأندلس فإنهم تربصوا حتى عهد عبد الرحمن الناصر فخطب له عَلَى المنابر ولقب بأمير المؤمنين.

تهيبت دول الشرق الحكومة الفاطمية وخافوا بأسها وقوتها فلم يقدموا عَلَى التحرش بها لعظمتها وفتوتها. وانبرى عز الدولة بختيار البويهى فأغرى قائد القرامطة عَلَى مقاومة الفاطميين وساعده بالمال والسلاح فسار فى سنة ٣٦٠ هـ إلى دمشق يطلب الإتاوة(٥) من أهل دمشق التى كان قطعها الفاطميون فلم يحفل جعفر بن فلاح بجمعهم واستهان بهم فكبسوه وقتلوه وامتلكوا دمشق فأمَّنوا أهلها وطمحت نفوس القرامطة إلى هدم دولة الفاطميين والاستيلاء عَلَى بلادهم فانقضوا عَلَى الرملة واحتلوها واستولوا عَلَى ما فيها وحصروا جند الفاطميين فى يافا. وقصدوا مصر وقد التف حولهم خلق كثير منهم حسان بن الجراح الطائى أمير عرب الشام فتصافوا قرب عين شمس واقتتلوا مرات كان الظفر فيها للقرامطة فاستعظم المعز الأمر وهالة فعمد إلى الحيلة واستمال أمير العرب حسان الطائى ورشاه بمبلغ ١٠٠ ألف دينار فانسحب وتبعه العرب وثبت القرامطة إلى أن أرهقهم جند المعز فانقلبوا راجعين وأتوا الرملة وشددوا الحصار على يافا فسير

(٥) كان للقرامطة ٣٠٠ ألف دينار يأخذونها سنويا من ابن طغج.

جوهر من مصر ١٥ مركبًا تحمل ميرة ونجدة للمحصورين فأخذها القرامطة ولم ينج منها إلا مركبان غنمهما الروم ومن قول ابن بهرام القرمطي:

زعمت رجال الغرب أني هبتها فدمي إذن ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيل

وساروا من فلسطين سنة ٣٦٣ هـ إلى أذرعات ومنها إلى الإحساء وفي سنة ٣٦١ هـ سار المعز لدين الله الفاطمي من أفريقية إلى مصر ونقل عاصمته إليها وسنة ٣٦٤ هـ انهزم افتكين(*) التركي من مولاه بختيار وسار في طائفة صالحة من جند الترك فوصل إلى حمص ومنها إلى دمشق فدخل المدينة وأخرج حاكمها ريان وقطع خطبة المعز وخطب للطائع العباسي فلما مات المعز طمع بحيازة واغتصاب بلاده وأغار عَلَى صيدا وانتصر عَلَى حاكمها وقصد طبرية فنهبها وعاث فيها فغضب الخليفة العزيز وأرسل جوهرًا بجيش ضخم فانسحب افتكين إلى الشام واستصرخ القرمطي فلباه فعرف جوهر وانصرف فسارا في أثره فأدركاه بظاهر الرملة ونزلوا عَلَى نهر الطواحين (نهر روبين) فقطعوا عنه الماء(*) فتراجع إلى عسقلان فحصراه مدة ثم فسحا له فذهب إلى مصر وعلم العزيز فبرز وفرق الأموال وجمع الرجال وسار إلى محاربة القرمطي وافتكين وعلى مقدمتهِ جوهر فاصطدم الجيشان عَلَى مقربة من الرملة وبعد قتال عنيف انهزم القرمطي وتبعه افتكين ومن معهما فبذل العزيز مائة ألف دينار لكل من أتاه بافتكين أسيرًا فأدركه المفرج بن دغفل الطائي وقد كظه العطش فأخذه إلى بيتهِ وأكرم مثواه لما كان بينهما من الأنس القديم. ثم أعلم العزيز به فدفع إليه الجعالة وتسلمه فأحسن إليه وقربه وأعطاه الخيام وأعلى مكانه وأعاد إليه من كان يخدمه وحمله معهُ إلى مصر وجعله من أخص أعوانه. أما القرمطي فقد بعث إليه العزيز رسولاً يدعوه ليحسن إليه فلم يأمن وخاف الغدر فعين إليه ٢٠ ألف دينار سنويًا. وفي

---

(*) يسميه الأتراك أنوشتكين والدروز نشتكين.

(*) كان ينحدر الماء إلى الرملة من عين يردة وهي تبعد ١٥ كيلو متر من شرقها وآثار القناة باقية للآن.

سنة ٣٦٨ هـ تغلب المفرج بن دغفل بن الجراح الطائى عَلَى الرملة وناحيتها وأظهر طاعة العزيز من غير أن يتصرف بأحكامه فعظم شأنه وكثر جمعه وعاث فى الأرض فسادًا فجهز العزيز بالله العسكر وأمَّر عليها القائد يلتكين فسار مجدًا إلى الرملة وقد التف حوله القيسية «العرب» فقابله جيش المفرج وكان منظمًا وبعد حرب قصير فرَّ ابن الجراح إلى إنطاكية والتجأ إلى أميرها اللخمى التنوخى. فانقضت خلافة العزيز وداخلية البلاد فى اضطراب واختلاف مع أنهُ كان حليمًا عادلاً غير متعصب كثير التسامح لا يفرق بين المذاهب والأديان فكان كاتبه الخاص عيسى بن نسطورس مسيحيًا ونائبه فى دمشق منشا يهوديًا وقد اعتز المسيحيون واليهود فى خلافته وهجاه شاعر فقال:

تنصر فالتنصر دين حق عليه زماننا هذا يدل

وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا الـ ـعزير ابن وروح القدس فضل

فامتعض وغضب ولكن عفا عنهُ فأطال لسانه أحد الشعراء وغضَّ من هيبة الملك وقال:

زبارجىٌّ نديم وكلَسىٌّ وزير

نعم عَلَى قدر الكلب يصلح الساجور

فبلغهُ الخبر وعرف القائل فقال لابن كلس قد اشتركنا فى الهجاء فشاركنى فى العفو وتوفى سنة ٣٧٦ هـ وعهد إلى ابنه أبى على المنصور الملقب الحاكم بأمر الله ولغرابة أطوار هذا الخليفة نفرد له نبذة خاصة.

### ٤٨ - الحاكم بأمر الله

ولى الخلافة سنة ٩٩٦ م سنة ٣٧٦ هـ وعمره إحدى عشرة سنة ونصف فأوصى بهِ والده أرجوان الخادم وجعله مدبر دولته فتغلب عليه الحسن بن عمار شيخ قبيلة كتامة وسيدها وبغى على الخليفة وتحكم فى المملكة وتلقب بأمين الدولة

وهو أول من تلقب فى الدولة الفاطمية وعبث بالخليفة واستصغره فتبسطت كتامة فى البلاد ومدوا أيديهم إلى أموال الرعية فأنف أرجوان وصى الحاكم وكاتب بعض القواد والعمال لاستخلاص البلاد منهُ فسار حاكم دمشق منجوتكين إلى مصر فأذاع ابن عمار أنهُ عصى الخليفة وندب العساكر لمحاربته وأمّر عليها أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح فتصافا قرب عسقلان وأُسر منجوتكين وهزم جمعه وبعث به أبو تميم إلى مصر فغضب أرجوان وثار فى مصر وأخذ السلطة من يد ابن عمار وبايع الحاكم ثانية فطمع المفرّج الطائى ونزل عَلَى الرملة ونهب ما وجده فأنفذ إليه أرجوان جيش بن الصمصامة فاسترد الرملة وهرب المفرج الطائى من بين يديه ثم ثار ثانية فملك الرملة وما والاها فاستبشر أبو القاسم المغربى وزير شرف الدَّولة وانسل إليهِ وحبب إليهِ الخروج عن طاعة الفاطميين وحسن له أن يبايع سواهم فراسل أمير مكة الشريف أبا الفتوح وخاطبه بأمير المؤمنين ورغبه فى القدوم إلى الرملة ليبايع له بالخلافة فاستناب بمكة وحضر وخوطب بأمير المؤمنين فَفَرِقَ الحاكم وراسل المفرّج وابنه حسان ومجدهما وترضاهما وضمن لهما الإقطاع الكثير والعطاء الجزيل فعدلا عن الشريف وردَّاه إلى مكة وعادا إلى طاعة الحاكم الذى جهز عسكرًا إلى الشام بقيادة على بن جعفر وأمره أن يكبس بنى طيّ. فلما وصل الرملة أزاح حسان وأباه المفرج وعشيرتهما عن تلك الأراضى وأخذ ما كان لهم من الحصون بجبل الشراة ونهب أموالهم وذخائرهم واستأنف السير إلى دمشق. ثم أمن الحاكم المفرَّج وأكرمه ووضع عليه من سمه فارتاح من شغبه.
ومن أعمال الحاكم المتناقضة التى تشهد بضعف عقله وهوسه أنه ادّعى الألوهية وسمى نفسه الحاكم بأمره واضطهد الديانة الإسلامية وأمر بسب الصحابة وترك صلاة التراويح ونشر مذهبًا جديدًا أباح فيه زواج الأخ بأخته وحرّم أكل الملوخية لأن معاوية بن أبى سفيان كان مغرمًا بها وأكرم النصارى واستوزر منهم فهد بن إبراهيم المسيحى ثم اضطهدهم واليهود فأمر بهدم كنيسة القيامة فى القدس وغيرها من الكنائس ثم أمر بعمارتها عَلَى نفقته وسلب أموالهم وأمرهم أن يلبسوا السواد شعار العباسيين احتقارًا لهم.

ونهى النساء عن الخروج من بيوتهن وقد أجمع الشعب عَلَى كرهه وتوقّوا بطشه فضجرت منه أخته ست الملك وتوقعت نقمته فاحتاطت لنفسها واتفقت مع القائد ابن دوّاس عَلَى قتله فأمر من اغتاله قرب المقطم وأخفى جثته. ومن آثار شيعة الحاكم فى سورية وفلسطين الأمة الدرزية التى تنتسب إلى أنوشتكين الدّرزى ومحمد بن إسماعيل التميمى الداعى وهما المبشران بألوهية الحاكم ومذهب التقمص الذى صادف هوى فى نفوس القرامطة «الدروز» فاعتنقوه. وبعد أن فقد الحاكم جمعت ست الملك الناس وأحسنت إليهم ورتبت الأمور وبايعت للظاهر لإعزاز دين الله وجعلت الأمر فى يد ابن دواس تطمينًا له ثم أمرت بقتله وأعلنت للقواد أنه هو الذى قتل سيدهم ومدّت يدها إلى الملك فاستبدت به.

وسنة ٤٠٢ هـ استطال حسان الطائى واستفحل أمره فى فلسطين وعقد حلفًا مع صالح بن مرادس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان واتفقوا عَلَى أن يقتسموا سورية بينهم فيكون من حلب إلى عانة لصالح ودمشق وملحقاتها إلى سنان ومن فلسطين إلى مصر لحسان فاستولى صالح عَلَى حلب وبلادها وحصر حسان الرملة وامتلكها ومن تأمل قليلاً فى هذا الحلف يجده منطويًا عَلَى أسرار خطيرة لأن هؤلاء الرجال كانوا أمراء القبائل العربية فى عصرهم ويشبهون فى الحالة الراهنة ابن سعود وخزعل وابن الشعلان وابن مهيد.. الخ. وقد رأيت مما مرّ بنا إن أسماء القواد والعمال كانت أجنبية ولم يبق للعرب حظ فى دولتهم فنقموا هذه السياسة وعقدوا حلفًا عربيًا صرفًا ضد الأعاجم الذين كانوا يحكمون رقاب قومهم ويسومونهم سوء العذاب. وقد تنبه الوزير المهلبى إلى هذه الأخطار وأشار إلى ما ترمى إليه الحكومة من سوء الإدارة بإقصاء العرب وتقريب الأجانب.

وقد لمح المتنبى فى شعره إلى أن البلاد العربية أصبحت أعجمية فقال قصيدة منها:

ولكن الفتى العربى فيها غريب الوجه واليد واللسان

ملاعب جنة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

فمن هذا يظهر أن البلاد العربية والشعب العربى انفصل عن حكومته وسادت عليه العناصر الأخرى فكان يشكو ويتألم ولكن بلا جدوى لأنهم كانوا غير قادرين على دفعهم والخلفاء لا يأخذون بيدهم فعقدوا هذا الحلف وحاولوا إثبات حقهم وكان يجب عَلَى الخليفة الظاهر أن يؤازرهم ولكنهُ سخط وغضب ثم جهز قائدة أنوشتكين البريدى بجيش كبير فسار إلى فلسطين ودلف إليه حسان وصالح فتصافوا فى سهل الأقحوانة(٥) وبعد قتال عنيف قتل صالح وابنه الأصغر وأرسل أنوشتكين رأسيهما إلى مصر واستولى على جميع البلاد ونجا نصر بن صالح فأسس فى حلب الدولة المرداسية واستكان حسان حتى سنة ٤٣٣ هـ ثم نهض مع بنى كلاب وثاروا ثانية ولكنهم لم يفلحوا وسنة ٤٦٠ هـ كثرت الزلازل بمصر والشام فانثلم سور القدس وانهدم أكثر منازل الرملة وهلك تحت الردم خلق كثير فتحولت المدينة إلى قرية وانشقت صخرة بيت المقدس وسنة ٤٢٩ هـ سمح الخليفة المستنصر بتعمير كنيسة القيامة وهادن ملك القسطنطينية.

وفى أيام هذا الخليفة اجتاز عرب بنى هلال فلسطين وعبروا مصر وقد بولغ فى قصصهم حتى اختلط الصحيح بالفاسد ولكن ابن الأثير وابن خلدون ذكرا ما نورده هنا بعد التمحيص فقالا: إن المستنصر استوزر الحسن بن على من قرية يازور (قرب يافا) ولم يك من أهل الوزارة بل كان قاضيًا على الرملة فاكرم العلماء وبجلهم فاحبوه وساعده الحظ فارتقى الوزارة ونال الإمارة بجده وعلمه واتفق أن والى إفريقيا المعز بن باديس قطع خطبة العلوى سنة ٤٤٠ هـ وخطب للقائم العباسى فحنق المستنصر وتهدده فغلظ المعز فى الجواب وخرج عن مألوف المخاطبات مع اليازورى وكاتبه بصنيعتهِ «وليس بعبده» فعاتبهُ فلم يرجع وطغى فلما أن قدمت قبائل بنى هلال زغبة ورياح وسليم وعدى وخفاجة وأميرهم مؤنس ابن يحيى المرداسى انتهز المستنصر ورجاله هذه الفرصة وأصلحوا ما بينهم وأزالوا أحقادهم وأعطوهم أموالاً ووجهوهم إلى القيروان وعاهدوهم بأن يعطى لهم كل ما يفتحونه ووعدوهم بالمدد والمساعدة فدخلت العرب إفريقية وكتب اليازورى إلى

(٥) القحوانة قرب طبرية على شاطئ البحيرة.

المعزّ: «أما بعد فقد أرسلت إليك خيولاً فحولاً ورجالاً كهولاً ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً» فجاسوا الديار وعاثوا فيها وامتلكوها وظلوا فى حروب مستمرة حتى أواخر سنة ٤٥٧ هـ فاصطلموا زنانة وتم لهم النصر.

وفى عهد المستنصر بالله كثرت الاضطرابات فى مصر فاستقدم الخليفةُ بدرَ الجمالى حاكم عكا لإصلاح ما فسد فنشط بدر ودخل مصر فى جيش من أهل فلسطين ففتك بجند الأتراك ولكن الخليفة لم يتعهد بلاد سورية فشغرت وهب ملكشاه السلجوقى لامتلاكها وفى سنة ٤٨٧ هـ توفى الخليفة المستنصر وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر.

## ٤٩ - الدولة السلجوقية

زحف من تركستان إلى البلاد الإسلامية قبائل متعددة كانت خاضعة إلى الأمراء السلاجقة الذين انقسموا فيما بعد إلى دول ثلاث: خراسانية وسورية وأناضولية. وقد اشتهر طغرل بك حفيد سلجوق بالشجاعة والفطانة وساعده الحظ والاجتهاد إلى أن دخل بغداد وخطب له عَلَى منابرها واخضع من تمرد عَلَى العباسيين ولكنهُ توفى عقيمًا فانتقل ملكه إلى ابن أخيه السلطان ألب ارسلان الذى امتد نفوذه واتسعت حدود بلاده واستولى عَلَى حلب فلما قضى خلفه ابنه ملكشاه فهمّ بفتح مصر واستئصال الدولة الفاطمية وسير سنة ٤٦٣ هـ وسنة ١٠٧٧ م أحد قواده اتسز «اقسز» بن أوق الخوارزمى إلى فلسطين ففتح مدينة الرملة وحاصر القدس وفتحها وملك ما يجاورهما من البلاد خلا عسقلان وقطع الخطبة الفاطمية وأحيا الخطبة العباسية وفى سنة ٤٦٨ هـ حاصر دمشق وفتحها ومنع الشيعيين أن يجهروا فى آذانهم بفقرة «حىَّ عَلَى خير العمل» وأن يؤذنوا كالسنيين وفى سنة ٤٦٩ هـ سار لفتح مصر فقابله أمير الجيوش بدر ومعه جمع كبير من العرب فهزمه وقتل أخاه وأكثر أصحابه فعاد «اتسز» منهزمًا إلى الرملة ثم سار منها إلى دمشق وقد خالف أهل القدس حاكمهم فنهد إليهم وحصر المدينة ففتحها عنوة ونهبها وقتل أهلها حتى من التجأ إلى المسجد الأقصى وكف عمن عاذ بالصخرة. وفى سنة ٤٧١ هـ أقطع السلطان ملكشاه الشام لأخيه تاج الدولة تتش فكف

هجمات المصريين عن البلاد وقتل«اتسز»لأنهُ لم يستقبله وبعد وفاة ملكشاه استقل فى سورية ودعا لنفسهِ وفى سنة ٤٨٢ هـ نهضت عساكر مصر لاسترداد سورية فلم يتوافقوا إلا لفتح عكا وبعض بلدان فلسطين فعين أمير الجيوش عليها الأمراء والعمال وفى سنة٤٨٦هـ فتحوا مدينة صور. ولما توفى «تتش» انقسمت مملكته إلى قسمين كانت قاعدة إحداهما حلب وملكها ابنه رضوان وحاضرة الأخرى دمشق وسلطانها دقاق. فشاق رضوان أخاه وسار إلى فلسطين ليفتحها فجاء إلى نابلس والقدس ورجع خائبًا ثم مات دقاق ملك سورية واستبد بالمملكة أتابكه «مملوكة» «طغتكين» وأسس ملكًا لولده بورى المنتسبة إليه هذه الدولة وقد وهم بعضهم فظنها دولة سلجوقية والواقع أنها بورية وهكذا ظلت الدولتان السلجوقية والفاطمية فى عراك وصدام فإذا ما استضعفت إحداهما الأخرى كانت تغير عَلَى بلادها وتقتطعها فتتربص الثانية حتى يوهن عدوتها فتق أو طارئ جديد فتنال به غرة وتهب بخفة وتسترد منها ما سلب. فباغتهم الصليبيون وهم منهوكو القوى وبلادهم فوضى وجيوشهم قد سئمت الحرب وملته وزهدت فى القتال والدفاع وطما عليهم السيل الغربى وأيقظهم التيار الأوروبى فغمر بلادهم وحكم فى رقابهم وطردهم من أوطانهم وسلب أطيب رقادهم حتى قيض الله لهم صلاح الدين فأخذ ثأرهم ونفى عارهم واسترد استقلالهم ونجاهم من عذاب أليم.